من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

ذات النطاقين

(قال عمر بن أربى ربيعة بعَقِب حديثه) :

... فوالله لقد جَهَدَنا البلاء - يا أهل مكة - ولقد صبرنا على حصار الحجّاج سبعة أشهر أو تزيد عن غير حصن ولا منعة ، وإنّ أحدَنا ليُرى وقد لحقت بَطْنُه بظهره من الجوع والطَّوَى ، ولولا بركة تلك العين (يعنى زمزم) لقضينا ، وصدق رسول الله ﷺ « إنها مباركة ، إنها طعامُ طُعمٍ » لقد أشبعنا ماؤها كأشد ما نشبع من الطعام ، وما ندرى ما يُفْعَلُ بنا مُنذُ اليوم . فلقد خَذَل « ابنَ الزُّبَير » أصحابُه خذلانًا شديدًا ، وما من ساعةٍ تمضى حتى يخرج من أهل مكة من يخرج إلى الحجاج فى طلب الأمان . ألا شاهتْ وجوه قوم زعموا أنْ سينصرونه ، يحمون « البيت » أن يُلحَد فيه ، ثم ينكشفون عنه انكشافة كما تَتفرق هذه الحمامُ عن مَجْثمها على الرَّوْع ...

وخرجتُ ، ومكة كأنها تحتَ السَّحَر خليَّة نحل مما يدوِّى فى أرجائها مِنْ صوت داعٍ ومكبِّر وقارئ ، وصَمَدْت [(١)] أريد المسجد فأسمع أذان « سعد » مؤذِّنِ ابن الزبير فأصلى ركعتى الفجر ، فيتقدم ابن الزبير فيصلى بنا أتمَّ صلاة ، ثم يستأذن الناس ممن بقى من أصحابه أن يُوَدّع أمه « أسماء بنت أبى بكر الصديق » فأنطلق وراءه وما أكادُ أراهُ مما احتشدَ الناس فى المسجد ، وقد ماجوا وماجَ بهم يتذامرون ويحضِّضُون ويُحرّضون ، وزاحمت الناس المناكب أرجو ألا يَفوتنى مَشهد أسماء تستقبل ولَدها وتودِّعه ولقد تَعْلمُ أنه مقتول لا مَحَالة ، فما أكاد أدركهُ إلا وقد انصرف من دارها يريد المسجد ، وإذا امرأة ضَخْمة عجوز عمياء

---

* الرسالة ، السنة السابعة (العدد : ٢٩٧) ، ١٩٣٩ ، ص : ٥٣٩ - ٥٤١

(١) صَمَدَ المكانَ وإليه : قَصَدَه

طُوالة كأنْ سرْحةٌ (١) فى ثيابها ، قد أمسكت بعُضادتى الباب تصرف وجهها إليه حيثما انتقل ، فوالله لكأنها تثبتُه وتُبصرُه ، وقد برقَت أسرَّةُ وجهها تحت الليل برق العارِض (٢) المتهلل ، ثم تنادى بأرفع صوت وأحنّه وألينه ، قد اجتمعت فيه قوة إيمانها وحنينُ قلبِها : « ياعبد الله ! يا بُنى ، إنى أُمك التى حملتك ، وإنى احتسبتك فلا تَهِن ولا تجزع . يابنى ابذُل مُهجة نفسك ، ولا تَبعد إلا من النار ... ياعبد الله ! لا تبعد إلا من النار ، أستودعك الله يابُنى ! » ثم تدور لتلج الدار فكأنها شِرَاعٌ قد طُوِى .

رحمة الله عليكم يا آل أبى بكر ، لأنتم أصلبُ الناس أعوادا وألينهم قلوبًا . وأحسن الله عزاءك ياذاتَ النطاقين ، فلقد تجملتِ بالصبر حتى لقد أُنسيت أنك أمٌّ يجزع قلبها أن يَهلكَ عليها ولدُها فيتقطع عليه حَشاها .

وانصرفتُ عنها بهمِّى أَسعَى ، فوالله ما رأيت كاليوم أَكْسَبَ لعجب وأجَدّ لحُزنٍ من أُمٍّ ثكلى يحيا ظاهرُها كأنه سراجٌ يَزْهَرُ ، ويموتُ باطنها كأنه ذُبَالةٌ توشكُ أن تنطفئ ، وذهبتُ ألتمسُ الوُجوهَ وأحزانها ، فما أَرَى وُجومَها وقُطُوبَها وانكِسارَها ورَهَقَها وصُفرَتها إلّا ذِلّة النفس وخضوعَها واستكانتها وضعفَها وعلّتها ، وأن المؤمنَ حين يحضُره الهمُّ أَشْعَثَ أغبرَ يَردُّه إيمانُه - حين يؤمن - أبلجَ يتوقّد ، ليكون البُرهانَ على أنَّ الإيمانَ صيْقَلُ الحياةِ الدُّنيا ، يَنْفى خَبَثَها ويجلو صَدَأَها ، فإمَّا رَكِبها من ذلك شىءٌ ، عادَ عليها يُحَادثها ويصقُلها حتى يتركها بيضاءَ نقيَّة ...

وما بلغتُ المسجدَ حتى رأيتُ ابن ذاتِ النِّطاقين قائما بين الناس كأنه عمودٌ من طُولِهِ واجتماعه ، ووثاقَة بنائِه ، وحضَرْته وهو يقول : « أيها الناس ، عجِّلوا الوِقاع ، ولا يرعِكُمْ وَقْع السيوف ، وصونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ، فلينظرْ رجلٌ كيف يضرب ، لاتخطئوا مضاربكم فتكسِرُوها ، فإن الرجُلَ إذا ذهب

(١) السَّرْحَة : الشجرة الطويلة العظيمة .

(٢) العارِض : السحاب بعترض فى الأفق .

سلاحه كان أعزلَ أعضبَ (١) يؤخَذُ أخذًا كما تُؤخذ المرأة . لِيَشْغَلْ كلّ امرئٍ قِرْنَه ، ولا يُلهينكم السؤالُ عنى : أين عبد الله بن الزبير ؟ ألا منْ كان سائلًا عنى فإنى فى الرَّعيل الأول » ... ثم يدفَعُ أسدٌ فى أَجَمَةٍ ، ويحيصُ أصحابُ الحجاج حيصة (٢) فى منازلهم من الرُّعب ، فلقد رأيتُه يقفُ ما يدنو منه أحدٌ ، حتى ظننتُ أنه لا يُقْتَلُ ، حتى إذا كان بين الركن والمقام رُمى بحجرٍ فأصاب وجْههُ فبلغ منه حتى دَمِىَ ، وسال دَمُه على لحيته ، وأُرعشَتْ يدُه ... وغَشِيهُ أصحابُ الحجّاج من كلّ ناحية وتغاوَوْا (٣) عليه ، وهو يقاتلهم جَاثِمًا أشدَّ قتال حتى قُتِل .

وارحمتا لك يا بنتَ أبى بكر !! أىّ كبدٍ هى أشدُّ لوعةً من كبدِكِ ! لقد والله رُحمتِ رحمةً إذ كفَّ الله منك البصر ، لئن لم تكونى تجزعين لموته ، لقد كنتِ جزعتِ لما مثَّلوا به وحزُّوا رأسهُ ، ورفعوه على خشبةٍ مُنكَّسًا مَصلوبًا ...

وما كدْتُ حتى أقبلتْ أسماءُ بين يديها كفنٌ قد أَعدَّته ودَخَّنتْهُ (٤) ، والناسُ ينفرجون عن طريقِها فى أعينهم البكاء ، وفى قلوبهم الحُزْنُ والرُّعب ، قد انتُسفت وجوههم كأنما نُشروا من قُبورهم لساعتهم ، وسكنت الأوصالُ ، وجالت الأحداقُ فى مَحاجرها وكأنها همَّت تخرُج ، وتمشى أسماءُ صامدة (٥) إلى الخشبة صمدًا وكأنها ترى ابنها المصلوب ، وكأنها تستروِح رائحة دَمِهِ ، حتى إذا بَلَغَتْهُ – وقد وجم الناس وتعلقت بها أبصارهُمْ ورجفت بهم قُلوبُهم – وقفتْ ، وقد وجدت رائحة المسك تحت ظِلاله فقالت : « يابُنَىّ طبتَ حيًّا وميّتًا ، ولا والله ماأجزعُ لِفراقك ياعبد الله ، فمن يَكُ قُتِلَ على باطل فقد قتلتَ على حق ، والله لأُثنِيَنّ عليك بعلمى : لقد قتلوك يابُنى مُسلمًا محرمًا ظمآن الهواجر مصلّيًا فى ليلك ونهارك » .

---

(١) الأعضب : أصله فى الحيوان ، وهو المكسور القَرْن .

(٢) حاص (كسار) : رَجَع ، وفى حديث أَنَس يوم أُحُد « وحاص المسلمون حَيْصَةً » ، أى جالوا جولةً يطلبون الفرار .

(٣) تَغَاوَوْا عليه : تجمّعوا عليه ، وهى بالعين المهملة أيضا .

(٤) دَخَّن الثوبَ : جعل فيه الدُّخْنَة ، وهو بُخُور تُدَخَّن به الثياب والبيت .

(٥) صَمَد المكانَ وإليه : قَصَدَه

ثم أقبلتْ وجهها السماءَ ومدّت بيديها تدعو : « اللهمَّ إنى قد سلَّمته لأمرك فيه ورضيتُ بما قضيتَ له ، فأثبنى فى عبد الله ثوابَ الشاكرين الصابرين . اللهمّ ارحم طولَ ذلكَ القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب ، وبرَّهُ بأبيه وبى » .

ووجم الناس وجمةً واحدةً ، وخشعوا خشعةً لكأن السماءَ والأرض صارتا رتقًا فما يتنفَّسُ من تنفَّس إلا من تحتِ الهمِّ والجهد والبلاء . وكأنّ مكة بيتٌ قد غُلِّقتْ عليه أبوابهُ لا ينفُذُ إليه أحد ولا يبرحه أحد . وكأن الناس قد نزعت أرواحهم وقامت أبدانهم وشخصت أبصارهم ، وبدت أسماءُ بينهم وكأن وجهها سراج قد نُصّ على سارية ، لا يزال يزهر ويتلألأ ، ثم تتلفت كأنما تتطلع فى وجوه هذه الأبدان الخوالد (١) ، وأضاء ثغرها عن ابتسامة . والله لقد بلغتْ من العمر وما سقطت لها سنٌّ ، ومازال ثغرها ترفُّ غروبه (٢) ثم قالت : « يا بَنيَّ ، لشد ما أحببتم الحياة وآثرتم دنياكم ، فخذلتم أخاكم ، وفررتم عن مثل مصرعه . يابنِيَّ يغفر الله لكم ، وجزاكم الله عن صاحبكم خيرًا » .

وأطرقت أسماءُ إطراقةً ثم رفعت رأسها تُومِئُ إلى الخشبة ، فوالله لقد رعدت فرائصى حتى تَزَايلتْ أوْصالى ، وصَرَّ الناسُ كأنما تقصَّفت أصلابُهم (٣) ، وإذا هى تقول : « أَلَا مَنْ مُبْلغ الحجّاج أن المُثْلَة سبّة للحىّ وما تضرّ الميّت . ألا مَنْ يُبْلِغ الحجَّاجَ عنِّى أن الشَّاةَ إذا ذُبحَتْ لم تألم السَّلْخ » .

وحامتْ أسماءُ وطافت بين الناس وبين هذه الخشبة ساكنةً صابرةً ، لا يُرَى إلّا بريق وجهها يومِضُ كأنه سيف صَقِيل ، ثم طفقت تردّد « يابَنِىّ ، أمَا آن لهذا الراكبِ أن ينزل ؟ أما آن لهذا الراكب أن ينزل ! يابَنِىّ ليستأذنْ أحدُكم حَجَّاجَكمْ هذا أن يَدفَع إلىّ هذه العظام . أَدُّوا عنى ، يرحم الله من أَدَّى عنِّى » .

فيجىء الرسول من قِبل الحجاج يأبَى عليها أن تُدْفَعَ إليها عظَامُ ابنها

---

(١) الخوالد هنا : بمعنى الساكنة كالجبال والحجارة والصخور .

(٢) الغروب : جمع غَرْب ، وهو الماء على الأسنان يكسبها بَرِيقا .

(٣) صر : صدر عنهم صوتا كالصرير ، وجاءت هذه العبارة فى شعر العطوى :

وليس صريرُ النَّعْش ما تسمعونه ولكنه أصلابُ قَوْم تَقَصَّفُ

المصلوب ، ويَجىءُ على أثره موكلون قد وكلهم بجثَّته يقومون عليها يحرسونها ، كأنما خَشِى أن يَحيا ميت قد حُزَّ رأسه أن تمسَّهُ يَدُ أُمِّه . فوالله ، فوالله لقد سمعتْ أسماءُ وخُبِّرتْ فما زادت على أن وَلَّتْ عنهم كما جاءت ما تقطر من عينيها قطرةُ دمْع ، وما تُجاوز قومًا إلا جاوزتهم كأنهم فُسطاطٌ يتقوَّض ، حتى ولجتْ بابَها وغلَّقته عليها .

وانطلقتُ أنفضُ الناسَ بعينىَّ ، فرأيتُ أخى الحارث (ابن عبد الله بن أبى ربيعة) وابن أبى عتيق (هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق) ما فى وجهيهما رائحة دم من الحزن والفرقِ . فقلت : ماهذا أوان جزع ، انطلقوا بنا - يرحمكم الله - إلى دارها نواسيها ونترفقُ لها ، فوالله لقد تخوَّف أن يذهبَ بها الحزن عليه ، وإنه لفالقٌ كبدَها ما لَقِيتْه . ويطرق الباب ابن أبى عتيق ، فيجيبُ الصوت من داخل : قد أسمعتَ فمهْ . فيقول : أنا ابن أبى عتيق يا أمَّاه . ويؤذن لنا فندخل دارها تَجِفُ قلوبنا من الروع والرَّهبة ، ونأخذ مجلسنا عند بنت أبى بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ وزوج حواريِّه عليه السلام ، وكأن قد تركنا الدُّنيا وراءنا وأقبلنا على الآخرة .

استضحكت أَسماءُ حتى بدت نواجذُها وقالت : « مرحبًا بكم يا بَنّى ، جئتم من خلل الناس تعزُّون أُمكم فى عبد الله . يرحم الله أخاكم لقد كان صوَّامًا قوَّامًا ما علمتُ . وكان ابن أبيه الزُّبير أوّلِ رجل سلّ سيفه فى الله ، وكان أشبه الناس بأبى بكر .

يا بَنىّ ، والله لقد حملتُه على عُسْرَةٍ ، والمسلمون يومئذ قليلٌ مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطَّفَهُم الناس ، ولقَدْ سعيت به جنينًا بين بيت أبى بكر وغار ثور بأسفل مكة فى هجرة رسول الله ﷺ وصاحبه أبى بكر رضى الله عنه آتيهما تحت الليل بما يصلحهما من الطعام ، ويسكنُ الطلبُ عن رسول الله ﷺ ، فأتيتهما بسفرتهما وسقائهما ونسيت أن أتخذَ لهما عِصامًا [1] ، فلما ارتحلا

---

(١) عِصام السِّقاء والقربة هو رباطها وسَيْرها التى تُحْمَل به .

ذهبتُ أُعلِّق السُّفرة فإذا ليس لها عِصامٌ ، فوالله ما أجدُ ما أعلقهما به ، ووالله ما أجِدُ إلّا نطاقى وأنا حُبلى مُتِمٌّ . فيقول أبو بكر يا أسماءُ شقِّيه اثنين ؛ فأشقه فأربط بواحد منهما السقاء وبالآخر السفرة ؛ فلذلك ما سمّانى رسول الله ﷺ « ذات النِّطاقين » يعنى فى الجنة . وأعود بعبد الله يرتكض فى أحشائى ، قد احتسبتُ نِطاقى فى سبيل الله ، فوالله ما أجدنى احتسبتُ بنىّ عبدَ الله اليوم إلا كما احتسبت نطاقى ذاكم . وأَعود إلى دار أبى بكر ويأتى نفرٌ من قريش فيهم أبو جهلٍ فوقفوا ببابها ، فأخرج إليهم فيقولون : أين أبوك يابنت أبى بكرٍ ؟ فأقول : لا أدرى والله أين أبى ، فيرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فيلطم خدِّى لطمة يطرح منها قُرطى فتغُول بى الأرض الفضاء ، فوالله لما لقيتُ من حَجّاجكم هذا أهون عندى مما لقيتُ من لطمة أبى جهل وأنا بعبد الله حامِلٌ مُتِمٌّ . يابَنِىّ إنى آخرُ المهاجرين والمهاجراتِ ، لم يبق على ظَهرِها بعد عبد الله منهم غيرى ، فلا والله ما حَسَنٌ أن يَجزَعَ من هاجَرَ - وإنّ شأن الهجرة لشديدٌ - وما حَسنٌ أن يجزع من شَهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وكيف وقد أربيت [١] على المائة .

يابنى جزاكم الله عنى وعن أخيكم خيرًا ، قوموا لشأنكم وذرونى وشأنى يرحمكم الله » .

وودَّعنا وانصرفنا ، ولا والله ما نجد لأسماء فى الرجال ضَرِيبة [٢] فأين فى النساء ؟ ولكنها كانت تصبر صبر المهاجرين الأولين على الجهد والبلاء .

وما كان صُبح خامسة من مقتل ولَدها حتى استجابت لدعوة ربّها رضى الله عنها وأرضاها ، وهى أمٌّ حنَّت تكتم حنينها ولكأنه عجَّل بها موته فقطع نياطها وصدع فؤادها ، وفلق كبدا عليه حنينها إليه ....

* * *

---

(١) أربى : زاد وأَوْفَى .

(٢) الضريبة : النظير والشبيه .